طرابلس الفيحاء: المعالم العمرانية والحضارية

الدكتور عبد الغني عماد
استاذ في الجامعة اللبنانية

كان لمدينة طرابلس منذ الفتح العربي دور سياسي وحضاري واقتصادي وعسكري هـام، جعلها تستحق لقب "مدينة العلماء والمجاهدين" وحمل أهلها لقب "حماة الثغور" بكـل جـدارة، شأنها في ذلك شأن أبرز الثغور العربية والاسلامية.

طرابلس التاريخ: اقترن تاريخ بنائها بتاريخ تشكيل مجلس الشورى الفينيقـي، وهـو حـدث سياسي ضخم في العالم القديم. فقد اختارت ممالك صور وصيدا وأرواد موقعها ليكون حيادياً وتمثل كل منهم بمئة نائب وأقاموا مع عيالهم في مواقع ثلاثة متقاربة. وهكذا ظهرت المـدن الثلاث "تريبوليس" والتي عرفت بداتية بـ: كايزا ومايزا ومحلاتا.

وفي عهد الخليفة بن عفان توجه القائد سفيان بن مجيب الأزدي لفتحها واستعان بالكثير من الصبر والحنكة قبل أن يتمكن من ذلك عام (25هـ).

تميزت طرابلس بقوة تحصيناتها، فالبحر يوفر لها الحماية الطبيعية مـن جهـات ثـلاث، ويحميها خندق عظيم وأسوار عالية من الجهة الشرقية المطلة على التلال. وقـرب شـاطئها مجموعة جزر لعبت دوراً كبيراً في تأمين المؤنة الاقتصادية

وكانت من المدن القليلة التي استعصت دائماً على المهاجمين لوثاقة أسوارها ومناعة حصونها.

وكانت طرابلس قبل احتلالها من قبل الصليبيين درة ثغور الساحل الشامي، وقد شهدت فـي عصر الدولة الفاطمية عهداً من أزهر عصورها التاريخية وكتب عنها في ذلك العصر العديـد من الرحالة والمؤرخين العرب أمثال (الاصطخري) و (المقدسي). ويصف الرحالة الفارسـي (ناصري خسرو) المدينة وشوارعها سنة 430هـ فيذكر ان مساحتها الـف ذراع مربـع وان دورها كانت تصل أحياناً الى خمس طبقات وست طبقات. ثـم يـصف شـوارعها فيقـول: شوارعها وأسواقها جميلة نظيفة حتى لتظن أن كل سوق قصر مزين، وقد رأيت بطرابلس ما رأيت في بلاد العجم من الأطعمة والفواكه بل أحسن منه مائة مرة.

وقد ظلت طرابلس تحت السيادة الفاطمية الى أن استقل بها قاضيها ابو طالب بن عمـار. وفي عصر "بني عمار" بلغت ذروة عظمتها وتألقت كحاضرة كبرى من الشام. واشتهر فيهـا آنذاك "دار العلم" وهي شبيهة بدار الحكمة التي أسسها الفاطميون في القاهرة، وهي شبيهة بدار

الحكمة التي أسسها الفاطميون في القاهرة، وتقدمت فيها الصناعات، وأصبحت طرابلس احـد أهم مراكز صناعة الورق والذي فاق في جودته ورق "سمرقند" الشهير.

الهدم وإعادة البناء:

لكن سقوط طرابلس بيد الصليبيين (503هـ) كان وبالاً على المدينة. وقد اقترن تحريرهـا عام (688هـ) بتدميرها تدميراً كاملاً. بل إنه تحول الى تاريخ لاندثار المدينة الفينيقية القديمة والتي أصبحت اثراً بعد عين. وقد أمر السلطان قلاوون بهدم ما تبقى منها وأمر ببناء مدينـة جديدة تقع على بعد ميل شرقي المدينة الخربة التي كانت فيما مضى حاضـرة مـن أعظـم حواضر الشام. وقد اراد بذلك أن يجنب المدينة الجديدة ما يمكن ان يـصيبها مـن غـارات الفرنجة الذين تمركزوا بعد ذلك في عكا وقبرص. واختار قلاوون لهـذا الغـرض الـربض الصليبي الواقع أدنى قلعة صنجيل في موضع بجوار النهر، وأقامها مدينة غير مسورة. وكانت الأبنية الجديدة تشيد من الاحجار المتخلفة من بقايا الاطلال. ولا يزال بعض من بقايا الأبنيـة الصليبية ظاهراً بعد ان أعيد استخدامها في المدينة المملوكية.

عمرت المدينة الجديدة بمختلف أنواع المنشآت، مدنيـة ودينيـة وعامـة، مـن حمامـات وقيساريات ومساجد ومدارس وخانات وخوانق. وأجريت في دورها الميـاه وخططـت فيهـا البساتين. ومع نواب السلطنة الذين توالو على حكم المدينة عرفت طرابلس ازدهاراً وعمرانـاً كبيرين واستعادت رخاءها الاقتصادي فكثرت أسواقها واتـسعت مرافقهـا ونمـت تجارتهـا وتعددت خاناتها التي كان يقصدها التجار من سائر أنحاء العالم، بحيث أصبحت طرابلس فـي عصر المماليك صورة مصغرة لمدينة القاهرة من حيث كثرة المـساجد والمـدارس، بقبابهـا ومآذنها وبواباتها ومن حيث نشاط سوقها الاقتصادي.

الطراز العمراني للمدينة: تميزت طرابلس المملوكية بكونها وحدة عمرانية متـصلة، يـشقها النهر الى نصفين أحدهما يقوم على هضبة صخرية تعرف باسم "القبة" أو قبـة النـصر فـي المصادر التاريخية، إشارة الى المكان الذي رابط فيه الظاهر بيبرس لتحريـر المدينـة مـن الفرنجة، يقابلها في الجهة الأخرى تلة اشتهرت باسم "تلة الحجاج" وتعرف الان باسـم "أبـي سمراء" واستعاض المماليك عن الأسوار لحماية المدينة باتباع نظام التعرض فـي الـدروب والأزقة والأسواق والمسالك. واتخذوا لحاراتها وأحيائها أبواباً كانت تجدد كلمـا زاد امتـداد العمران. وحصنوا المدينة بسلسلة من الأبراج والحصون على طول الـشريط البحـري فـي الميناء.

السويقة والتبانة والقبة هي أبرز الأحياء على الضفة الشرقية للنهر الذي يـشطر المدينـة قسمين. والنوري وباب الحديد والرمانة والمهاترة والحدادين والتل والزاهرية والميناء علـى الجهة الغربية. المدينة المملوكية مترابطة ومتصلة عمرانياً تخترقها أسواق وممـرات ضـيقة

مستقيمة حيناً ومعوجة أو ملتوية غالباً. مكشوفة في بعضها ومسقوفة في بعضها الآخر، بحيث لا تدخلها أشعة الشمس إلا من بعض كوات صغيرة تتسرب منها في الأيام المشرقة. الأزقـة والدروب ضيقة عموماً تتراوح بين المترين والخمسة أمتار. ويشكل بعضها متاهة للغريـاء. بعضها مرصوف بالحجارة السوداء الملساء (البلاط) وبعضها الآخر تـألف مـن درج يتجـه صعوداً الى القلعة أو الى الأحياء التي تقع على هضبتها الصخرية في القبة.

الطرق الرئيسية في المدينة القديمة تشكل في غالبها السوق الذي كان يضم أكثر من ثلاثـين نوعاً من الحرف، كان يعرف كل منها بمفرده باسم الحي أو باسم بانيه أو باسم الحرفة التـي تمارس فيه كما يتبين لنا من خلال وثائق محكمة طرابلس الشرعية: "سوق الأساكفة – سـوق القمح – سوق الزرابيلية – سوق القاوقجية – سوق العطارين – سـوق الملاحـة – الـسوق السلطاني – سوق الصياغة – سوق القوافين – سوق البابجية – سـوق العقـادين - سـوق منجك...).

السوق هو الطريق الأوسع والأطول في المدينة القديمة. أما الطريق القـصيرة والـضيقة فكانت تدعى زقاقاً. بعضها كان مسدوداً وبعضها الآخر يوصل الى زقاق آخر. وقـد يكـون مسقوفاً جزئياً أو كلياً، تتخلله قناطر أو "عقبات" تشكل تقاطعاً لإلتقاء زقاقين أو أكثر. وقد نشأ عن إلتقاء الدروب والطرقات الداخلية عدد من الساحات بنيت فيها الأسبلة والبـرك التـي لا يزال بعضها حتى الآن، وكانت متنفساً لأبناء الحي. استخدمت السجلات الـشرعية العثمانيـة تعبير "المحلة" وهو تعبير مستخدم من حلب والموصل وبغـداد، لكـن العامـة الطرابلـسية استخدمت تعبير "الحارة" السائدة في القاهرة ودمشق ايضاً. والمنطقة السكنية في المدينة تحيط بالأسواق وتتصل بها عبر شبكة الأزقة المتعرجة والمغلقة في بعض الأحيان. والغرض مـن هذه الظاهرة العمرانية دفاعي محض. وتألفت المدينة حسب الوثـائق العثمانيـة مـن سـت وعشرين محلة، أقيمت على مداخلها البوابات، ليسهل الدفاع عنها، بل وعن كل سـوق مـن أسواقها. كانت هذه البوابات تغلق مع غياب الشمس ولا تفتح إلا عند شروقها، وقـد وصـل عددها الى ما يزيد عن عشر بوابات، بقي منها ثلاث: بوابة الحدادين، بـاب التبانـة، بـاب الحديد.

وفي دراسة قمنا بها على وثائق طرابلس العثمانية، تبين لنا أن أسواق طرابلس ضمت فـي القرن الثامن عشر أكثر من مئة حرفة (في دمشق وحلب ما يقارب 168 حرفة). ويمكن أيضاً معرفة الأهمية الاقتصادية للمدينة من خلال عدد الأسواق والخانات والتي بلغـت 27 سـوقاً و40 خاناً (في دمشق وجد 45 سوقاً و57 خاناً).

ولم تعرف المدينة تغييراً كبيراً ابان الحقبة العثمانية، فهم ورثوا مدينة عامرة. لكـن مـع الوقت كان واضحاً أن المدينة تتجه نحو المزيد من التوسع، وخاصة مع بدايات القرن التاسـع

عشر باتجاه الغرب، نحو المنطقة المعروفة باسم التل والتي شهدت بنـاء الـسراي العثمـاني الكبير وبرج الساعة الشهير، وباتجاه الزاهرية التي استقطبت الأبنية والمنشآت الصناعية، ثـم باتجاه الميناء عبر الطريق التي عرفت باسم المتصرف العثماني عزمي بك، ثم طريق المئتين أواسط الخمسينات، ثم باتجاه بساتين طرابلس التي بنى في وسطها معرض طرابلس الـدولي، إلى أن أزال مشروع الضم والفرز الحالي ما تبقى من بساتين طرابلس من الوجـود، والتـي طالما فاخرت بها المدينة، وعرفت بالفيحاء لما كانت تنشره هذه البساتين من روائـح زهـر الليمون العطرة التي كانت تعبق بها كافة أحياء المدينة. هذا التوسع والامتـداد شـمل أيـضاً الضفة الشرقية التي أخذ زيتونها في أبي سمراء والقبة بالانحسار لصالح الامتداد العمرانـي، كما امتدت التبانة شمالاً ولم يبق من بساتينها أو "السقي" التابع لها شيء يذكر.

المعالم والمنشآت الدينية:

يكاد المسجد – الجامع أن يكون الأصل في بناء المدينة فمـن حولـه شـيدت الأسـواق والحوانيت، فالجامع المنصوري الكبير سمي تيمناً باسم فاتح طرابلس "المنصور قلاوون" وهو "الكبير" لأنه كان ولا يزال أكبر جوامع المدينة. والداخل الى المدينة كان ولا يزال يبهر بعدد مساجدها ومدارسها، فهي تنتشر وتتوزع على مختلف الأحياء والأسواق، بحيـث يمكننـا أن نرى بوضوح كيف تتزاحم المدارس المتجاورة في رقعة صغيرة في منطقة "النـوري" مـثلاً، حيث تتابع بشكل كثيف وتحيط بالجامع المنـصوري وبمداخلـه الأربعـة، بـدءاً بالمدرسـة القرطاوية الى الشمسية، والأثرية، والخيرية حسن، والناصرية، والنوريـة، الـى الطواشـية والكريمية والحنفية والبيروتية والدهان ومدرسة احمد آغا جاويش وغيرها من المدارس التـي تهدمت وأزيلت أو حولت الى متاجر وبقيت قبابها دليلاً يشير الى أهمية هذه المدينة في نـشر العلوم الإسلامية على مدى قرون.

وعندما زار الشيخ عبد الغني النابلسي طرابلس في رحلته الشهيرة عام (1700م) قال: "إن ببلدة طرابلس المحمية مدارس وزوايا ومساجد لا تعد ولا تحصى. وسمعنا إنـه كـان بهـا ثلاثمائة وستون مدرسة ولكن أكثرها متهدم وغالبها مهجور.." ومن أجمل المـساجد جـامع طينال والذي شيد عام (1336م) ويتمتع بطراز هندسي وإسلامي مميز. وكذلك جامع العطار ويقع في قلب المدينة القديمة وهو من أكبر جوامع المدينة وثالثها من حيث الأهمية. ثم جـامع البرطاسي والذي يقع على الضفة اليسرى من نهر أبي علي والذي يعود إنشائه الى مـا قبـل (1324م) والذي بني لتدريس المذهب الشافعي. وهناك جامع الاويسية والذي يتميـز بمئذنـة رائعة الجمال. بالإضافة طبعاً الى عدد كبير من المساجد لا يسمح المجال لـذكرها أو تعـداد مميزاتها، أهمها جامع التوبة، وجامع سيدي عبد الواحد المكناسي، وجامع الطحـام، وجـامع المعلق، وجامع الحميدي، والمسجد الأسعدي، ومسجد الحجيجيات.

أما التكايا فهي عديدة وابرزها التكية المولوية الشهيرة، وتكية القادرية، وتكية أبي الخـواتم المعروفة بالاحمدية.

وهناك مظاهر حضارية في المدينة تسترعي الانتباه أولها ان المساجد والمدارس والحمامات والخانات تقع بجوار بعضها البعض. وهذا التجمع لهذه الأبنية كـان يلبـي حاجـة الـسكان والمصلين وأهل السوق والتجار الوافدين الذين ما أن ينزلوا بضاعتهم فـي الخانـات حتـى يذهبون الى الحمامات للراحة والاغتسال وبعدها الى الجامع أو المسجد الملاصـق. ويمكـن ملاحظة هذه المسألة بالعين المجردة حتى الآن.

كذلك لوحظ انه كان يراعى بناء مدرسة أو مسجد عند كل بوابة. وفي الغالب تقام مدرستان عند كل بوابة، أحداهما مما يلي البوابة خارج البلد والأخرى الى الـداخل منهـا. ويبـدو ان المدرسة الخارجية كانت مخصصة للوافدين على المجينة الذين يصلون بعد اقفال البوابات عند مغيب الشمس.

ايضاً اشتهرت المدينة بكثرة "سبل المياه" لارواء عطش الأهالي والوافـدين، وبحماماتهـا الرائعة والتي بقي بعضاً منها حتى الآن وأهمها: حمام عز الدين، والحمام النوري، والحمـام الجديد، وحمام العبد. ويتميز كل منها بقبواته ذات المضاوي وغرفه المعروفة "بـالبراني" أي غرفة الثياب. و"الوسطاني" اي الدافئة ثم "البيت الساخن" وهو عادة ما يتألف من عدة غـرف تحيط بالوسطاني وفي كل غرفة جرنان للمياه الساخنة.

أما الآثار العسكرية فهي عديدة ولم يتبق منها سوى اثرين بمنتهى الأهميـة همـا: القلعـة وبرج السباع، الذي كان واحداً من ثمانية أبراج بناها المماليك على طول ساحل المدينة للدفاع عنها.

ولقد نكبت المدينة بفيضان نهرها أواخر سنة 1955، ونتج عن ذلك أخطر مشروع عرفته في تاريخها. ففي غفلة من أهلها وغياب مسؤوليها تم تحويل نهرها الذي كان بمثابة "الجندول" في "بندقية" الشرق الى مجرى اسمنتي بشع، فأزالت الجرافات كماً هائلاً من الآثار المنتـشرة على الضفتين، ومنها البيمارستان، خان المنزل، حمام الحاجب، حمام العطار، حمام النزهـة، مسجد الدباغين، مدرسة الوتار، مدرسة سبط العطار، البتركية، الزريقية، النسر بن عجبـور، باكية غانم، قصر الطنطاش، سوق السلاح، سويقة أسندمر، المسلخ، الطواحين، جسر السويقة، جسر اللحامة، والبيوت التي كانت تتكئ بشرفاتها الخشبية ومـشربياتها فـوق ميـاه النهـر. وتعرضت التكية المولوية، والمدرسة الظاهرية، وسراديب تحت السباط للخراب. يضاف الـى هذا ما خلفه الهدم العشوائي في قلبها النابض عند شق وتوسيع سوق النحاسين والرمانة وباب الحديد والرفاعية والدفتار والسراي العثماني الكبير وغيرها.

ومع ذلك لا تزال الفيحاء المدينة الأولى بآثارها المملوكية على الـساحل الـشرقي للبحـر المتوسط رغم كل ما نالها من نكبات الطبيعة وما أنزلته يد الانسان في عمارتها من تخريـب وتشويه. فهي لا تزال تحتضن ما يزيد عن المئة والخمسين معلماً، بين جامع ومسجد ومدرسة وزاوية وتكية وخانقاه ورباط خيل، وقناطر وأبراج واديـرة ومـزارات وكنـائس وخانـات وحمامات وقصور وسبل مياه وبوابات وكتابات ونقوش ورسوم وزخارف ورنُوك، فضلاً عن القلعة الشامخة والشاهدة على تاريخ المدينة.